ما قبل النهضة

مظاهر الأدب
في بَلاط ظاهر العُمَر

بقلم فؤاد افرام البستاني

في هذا الحديث ، من دمشق وصور حيث شهدنا ، في اوائل القرن الثامن عشر ، تلك المساجلات الدينية بالشعر الصوفي بين الشيخ عبد الغني النابلسي والشيخ احمد الحرّ[1] ، الى مدينة عكا ، فنشهدُ في منتصف القرن المذكور ، ما شاده بين أطلال القامة القديمة ، مُغامِرٌ جريء عرف ان يستقلّ ، الى أبعد حدّ ، تنازع الأمراء والولاة المحلّيين في مصر ولبنان والشام ، وتطاحُنَ المطامع الدولية في البحر المتوسّط . فأركز على هذا التوازن المضطرب إمارة مستقلة كان لها قدرها في حساب الدول فترةً من الزمن . حتى اذا استقرّ التوازن ، تهافتت تلك الإمارة المصطنَعة ، وعاد اربابها كما بدوا ، زعماء عشائرهم فحسب . هو الشيخ ظاهر العُمر الزيداني ، سيّد الزيادنة الضاربين في برّ عكا ، فعامِلُ الامير بشير الأول على صفد وضواحيها ، فسيّد القلعة التاريخية المنيعة ، فشريك علي بك الكبير في التواطؤ على السلطان ، فحليف كاترين الثانية ، وعدوّ الدولة العثمانية ، فقتيل الغدر والخيانة في أسوار قلعته ، سنة ١٧٧٥ .

بيد انّ ما يهمّنا في هذا الكلام ، لا تسلسل الاحداث السياسية ، وان يكن فيها تبصرةٌ وتوضيح لما يجري كلّ يوم في الشرق الادنى ، انما هو مظاهر ما نجرؤ على تسميته بالادب في تلك البيئة . ولا بأس بهذه التسمية ما دُمنا أسبغنا نعت الأدب على آثار النابلسي والحرّ وشاكر الأيلول .

---

١) اطلب « مشرق » هذه السنة ص ٧١-٨٠

كان في بلاط عكا — ان جاز لنا ان نسميه بلاطاً — كاتب متطبب من نصارى عكا الملكيين هو ابراهيم الصبّاغ. وكان ، على ما يبدو ، يحتكر المعارف جميعها اذ ذاك ، فيسهر على صحة ظاهر الغُمر الجسدية والمالية ، والسياسية ، فيداوي أسقامه ، ويضبط حساباته ، ويدبّر شؤونه كلّها . فلا يُخالَف له قول . الّا ان وصفته السياسية الاخيرة لم تنجح ، إذ نصحه بمحاربة حسن باشا القبودان ، قائد الحملة العثمانية البحرية ، فأغضب احمد اغا الدنكرلي ، احد رجال ظاهر المتواطئين مع الباشا المذكور . وما هو ان أعلن ظاهر عزمه على الحرب ، حتى دبّر الدنكرلي المكيدة لاغتياله ضمن الأسوار ، وسهّل دخول القلمة لحسن باشا .

وكان من ضحايا النصيحة صاحبها الطبيب نفسه . فاعتقله القائد العثماني واقتاده « بالذلّ والهوان » — على لغة الامير حيدر — الى قبرص ثم الى القسطنطينية . وهناك قتله « معلّقاً بشراع بعض السفن كيلا يُخبر بما غنمه من الأموال الوفية والتحف السنية . »[1]

ولم ينجُ الدنكرلي من انتقام حسن باشا ، على ما كان من خيانته لمولاه وقد خاف منه الباشا وشايةً عليه بما نهبه من اموال عكا . فقتله في القلعة نفسها . فسوّى الموت بين الأمانة والخيانة .

وترك ابراهيم الصبّاغ ذريّةً حفظت تقاليد العلم ، بعد انتقالها الى مصر . وأشهر من يُذكر من هذه السلالة حفيداه عبّود وميخائيل اللذان اتّصلا بعلماء الحملة الفرنسوية على مصر وساعداهم في كثير من الدروس والتاليف . ثم لحقا بهم الى فرنسة . ولهما في مكاتب اوربة حتى اليوم ، آثار في الشعر العربي والتاريخ لا تزال في اكثرها مخطوطة . انما هي تخرج عن موضوعنا هذا ، لبعدها عن بلاط عكا .

اما هذا البلاط فأنِس بشاعر أمير ، لولا تقليده الضيّق الأفق ، لكان

---

١) الامير حيدر الشهابي : الغرر الحسان — طبعة اسدر رستم وفؤاد افرام البستاني — ١ : ١١٧

صورةً خافتة الالوان لابي فراس الحمداني ، او لأُسامة بن مُنقذ. هو ابن ظاهر العُمَر، الشيخ عثمان . وقد كان للشيخ ظاهر عدة اولاد كما يُستنتج من إشارة للامير حيدر الى أنه « تزوّج جملة نساء ، وأتاه منهنّ اولاد ذكور . وطلع بهم ذكر مشهور في الشجاعة والقوّة واليراعة»[1] يُعرف منهم صالح ، وصليبي ، وعبّاس ، وعلي ، وكلهم من رجال السيف ، وعثمان هذا من رجال السيف والقلم . ولعلّه الوحيد بين اخوته في جمعه بين المتناقضين في مجتمعه ، في عكا ذاك المجتمع المُجنَّد بكامله ، المتحفّز ابدًا لهجوم او لدفاع . ينتهز فترات السلام والطمأنينة المتقطعة ، فيكبّ على دفاتره يثقف بما فيها من شعر قديم ويُمرّس قريحته بتسطيره ومعارضته . حتّى يحدث ما يؤدّي الى تنافر بينه وبين ابيه ، فيعتقله الشيخ مدةً . وحينما يخلص من حبسه ، يغضب على ابيه ، ويهرب لاجئاً الى لبنان ، شأن الكثيرين من المضيّق عليهم في البلاد المجاورة ، على اختلاف العصور . فينزل على الامير منصور سنة ١٧٦٦ . والامير منصور صديق ظاهر العُمَر، كما كان ابوه الامير حيدر من قبله . فيستقبل الشاعر الشاب ، ويطيّب خاطره ، ويسعى فيُصلح الحال بينه وبين ابيه . ولا يُهمل الامير حيدر ان يصوّر لنا الشاعر فاذا هو « حسن الصورة ، طويل القامة » .

اما شعره ، فينبوعه جاهليٌّ محض ، وإخراجه متين فيه شيء من روعة التركيب ، الّا انها روعة القِدَم المُقلَّد لا روعة الجدّة والابتكار . وجديرٌ بالذكر ان هذا التقليد لا يأخذ بأساليب العبّاسيين او الانحطاطيين ، وهي من السهولة بمكان ، انما يرقى الى الجاهلية ويكاد ينحصر بما كان لم يكن هناك تجدّد عبّاسي ، او تنوّع أندلسي ، او ميعةٌ انحطاطية . ويكاد ينحصر ، من الجاهلية ، بباب الفخر والحماسة ، وهو امرٌ معقول بالنظر الى أمير عاش عيشة الشيخ عثمان في بيئة ابيه وزمانه . واذا فمن الطبيعي ان يكون مثاله الأعلى الشعر المنتزي ، وان تكون افضل قصائده تلك التي يترسّم فيها خُطى ابي الفوارس في المعلّقة .

---

١) الامير حيدر : الكتاب المذكور ؛ ص ٧٨

كم عاذر الشعراء من متغزل ! وعرفت رسم الدار ، قبل توهمي .
كيف الضلال عن الحجرة ، والوجا طلق لناظر مقلة غير العمي !
دار لشرقة الجبين ، كأنها بدر أنار بجنح ليل مظلم ،
عهدي بها ، وبها الظباء أوانس يرعين بالوشي الزهي المعلم .
من كل محطفة الحشا ، أدماء ، ترهو بطرف ناعس ، وبمعصم ،
بلهاء ، فاترة ، لعوب بالنهى ترمي لواحظها القلوب بأسهم .

ولا ينقص هذا النسيب شيء من الصور الجاهلية ، بل من ألفاظها وتعابيرها :

برهاء ، بارعة المحاسن ، غادة ، ترنو بعيني جؤذر لم يفطم ،
ميّاسة ، لعب الدلال بعطفها ، فتثنّت كالغصن الناعم ؛
ربيبة اللحظات واللفتات ، بل خمرية الوجنات والمتبسم .

ويخطر على باله تشبيهات من آثار الشعر الصوفي فيضيف الى وصف آلته :

روحية ألفاظها ، لو كلمت جدثاً لقام الى حياة المنعم .

وينتقل الى الفخر التقليدي كذلك :

اني من النفر الذين اذا اعترى ضيم ، أبوه بكل عضب يخذم ؛
واذا الخطوب دجت بكل مهولة ، يزغوا شموساً في الملم المظلم ؛
واذا السنون ترادفت أزماتها ، سالوا سيول سماحة وتكرم .
قتلوا الزمان تجاربا وتجاربا ، وجروا على سنن بمجد أقدم .
م يتقسمون على الأنام فعالهم ، وفعالهم سرضية لم تقسم .
كم منهم من أصيد ذي رفعة ، أو أصيد ذي شمة ، او منعم ؛
او أبلج قد يستضاء بوجهه ، ويرأيه في المدلهم المبهم ؛
لو فاخرته النيرات ، لبذها بنير فكر في المآثم مسلم ؛
او ساجلته الغاديات بسحها لنما عليها جودها المتكرم .
من كان منهم مفخرا ، فسؤاله بحسامه ، والناس تسأل بالقلم .
شمس على كبد الزمان ، وغيرهم متضائل في الحادث المتجهم .

قد يؤخذ على الشيخ عثمان تقلقل في بعض القوافي ، وجلهلة في بعض

الأبيات ، وتساهل في الصيغ والقوافي احياناً . انما لا ينكر عليه ايمانه الشعري ، واخلاصه ، وهذا النفس الطويل النائل المستند الى القوالب العتيقة حتى ليندفع الى استعمال الفاظ يجرّها التقليد ، ولا معنى لها ، ولا مبرّر الا ورودها على صيغ محفوظة في الشعر القديم .

واشدّ ما يكون هذا النَّفَس اندفاعاً في الفخر بنفسه ، والإشادة بشجاعته وبطشه في المعركة ، اذ يستشهد بقريدة ، وهي عروس شعره وعيلة معلّقته ، فيقول :

هَلّا سألتِ بني أبينا — إذ أتوا يتآمرون على جيادٍ غُرَّمِ ،
يتبادرون الى الوطيس ، كوابساً ، وحواسراً ، يُزجون كلَّ مَطيهم ؟
حيثُ التقى الجمعان ، واشتمت بنا حَرْبٌ ضروسٌ — كيف كان تقدمي ؟ . . .
لمّا تراأوا زُرْعُهم بِنَمارِقٍ وزَمَت صواعنُها بنوءِ محجمِ .
وسعى ألِفوا الحروبَ ، كأنهم أُسْدٌ تزاءرُ وسطَ غِيلٍ مشهمِ ،
من كلِّ خوّاضِ الحجاج ، مُذَفِّقٍ جَبِجٍ الى داعي النزالِ غَشَمْشَمِ .
ما زلت أرميهم بصدرِ قَنيتي فَرْواءَ ، تنضُّ انقضاضَ الأقدمِ ،
شُمْثاءَ ، مُهْضَمَةِ المَواصِرِ ، ضمرةٍ ، تَنْحَطُّ فيهم كالقضاء المُبرَمِ ،
حتى تراجع جَمْعُهم مُتكاعِباً ، واستَنَّ فارُهُم لضنك المَهْزَمِ ؛
متسابقين الى الضرار ، كأنهم لم يسمعوا جوابَ مَن لم يُقدِمِ ؛
يتناجمُ من سِنانِ كلِّ مُثَقَّفٍ ، صَدْقٍ ، ومَضرب كل عَضْبٍ أخذَمِ ،
طَعْنٌ كأفواهِ المَزادِ ، يَحُفُّهُ ضربٌ كأثداءِ المَخاضِ الهُيَّمِ .

وفي هذه المعلقة ابيات صارخة في الشكوى من قومه لسوء معاملتهم اياه لعلّ افضلها قوله :

ما غَدرُ قومي بي ، وقد سالمتُهم ، إلّا سواداً في وجوه الأنجُمِ !

هذه الشاعرية الفطرية ، هذا النَّفَس المندفع ، هذه الرغبة في الجمع بين حياة السيف ، وحياة الفكر ، في إحياء البيئة الجاهلية بما امتازت به من شجاعة

وكم ؛ لم ينقصها لتبلغ مستوى الفنّ سوى استقرار المجتمع ، واتساع الافق التفكيري ، والاتجاه بالثقافة جهة الكمال الإنساني . وهي شروط لم يكن بالإمكان تحقيقها في عكا في القرن الثامن عشر . فكفى البلاطَ فخراً أن كان له شاعر ، وشاعر أمير ، يتناسب شعرُه وسائر المظاهر الأدبية في عصره.